تجليات الأسلوب التمثيلي وجمالياته في الخطاب النبوي - رياض الصالحين لأبي زكريا النووي (ت 676هـ) نموذجا-

د/ صفية بن زينة

قسم اللغة العربية جامعة الشلف

Safou_nour@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/11/28 تاريخ القبول:2020/01/16

الملخص:

يعد التنويع الأسلوبي من أبرز مظاهر الإعجاز البلاغي حسب مقامات الخطاب ومقتضيات الحال. وهذا موضوع يستدعي دراسة مفردة، وبحثا معمقا، لاستجلاء مناحيه وبيان أهدافه ووظائفه السياقية والتربوية والتعليمية والجمالية. لكننا نقتصر في هذا المقال على دراسة عامة لنوع واحد من الأساليب النبوية، وهو أسلوب التمثيل، ولاشك أنه من أبرز أساليب الخطاب النبوي، فما هي خصائصه ؟ و ما هي مظاهره الجمالية ؟ وما هي غاياته وأهدافه ووظائفه؟.

هذه الأسئلة أهم الحوافز الموضوعية لهذا المقال الذي لم تكن الغاية منه استقصاء الأمثال النبوية، وإنما المقصود هو تقديم نموذج تحليلي عام يبرز أهمية الأسلوب التمثيلي في الخطاب النبوي، باستخلاص بعض خصائصه الجمالية البيانية، وتدبر مضامينه، وغاياته التربوية، ووظائفه السياقية البلاغية، وخاصية الرسالة الإرشادية والتعليمية التي يحملها للقارئ؛ لأنّ هذه الأمثال بيانٌ لبعض الأمثال القرآنية أولا وتفصيل لموضوعاتها ثانيا، وفي كلتا الحالتين نجد المبدأ المقرر في أصول الفقه والذي فحواه أن السنة بيان

للقرآن. وقد اخترنا لهذه الغاية مصدرا من مصادر الحديث النبوي، وهو كتاب " رياض الصالحين " للإمام أبي زكريا يحي بن شرف النووي (ت 676ه).

ولذلك جمع هذا المقال بين محاولة تذوق جمال النظم الأسلوبي التمثيلي في الحديث النبوي، ومحاولة لذِكر شيء من جوانب العناية به، والحث على تذاكره، وعرض لجانب مُهِم منه، ألا وهو: ضَرب الأمثال في الحديث النبوي الشريف وما فيها من بلاغة وبيان، وقوة تصوير، ودقة ألفاظ، وتدبُّر مضامين هذه الأمثال الحكيمة.

الكلمات المفتاحية: التنوع الأسلوبي، الإعجاز البلاغي، الأمثال، الخطاب.

abstract

Stylistic diversification is one of the most prominent manifestations of rhetorical miracles according to the rhetoric of the speech and the requirements of the case. This is a subject that calls for a single study, and in-depth research, to elucidate its aspects and to clarify its objectives and functions and contextual, educational, educational and aesthetic. But in this article we are limited to a general study of one type of prophetic methods, the method of representation, and there is no doubt that one of the most prominent methods of prophetic discourse, what are its characteristics? And what are its aesthetic manifestations? What are its goals, objectives and functions?

These questions are the most important objective incentives for this article, which was not intended to investigate the prophetic proverbs, but is intended to provide a general analytical model that highlights the importance of the representational style in the prophetic discourse, by drawing some of its aesthetic graphical characteristics, and management of its contents, educational objectives, and rhetorical contextual functions, and the characteristic of the message And educational carried by the reader; because these proverbs a statement of some of the Koran proverbs first and a breakdown of its subjects second, and in both cases we find the principle established in the principles of jurisprudence, which is that the Sunnah statement of the Koran. We have chosen for this purpose a source of Hadith, a book "Riad righteous" of Imam Abu Zakaria Yahya bin Sharaf nuclear (d. 676 e.(

Therefore, this article combines the attempt to taste the beauty of the stylistic representational systems in the hadith, and an attempt to mention some aspects of

care, and to urge his tickets, and an important aspect of it: multiplication of proverbs in the Hadith and the rhetoric and the statement and the power of photography, And the accuracy of the words, and contemplate the contents of these wise proverbs.

key words: Stylistic diversification, discourse, proverbs, rhetorical miracles

مقدمة :

قام النبي ﷺ بتبليغ دعوته إلى أمته بأساليب شتى وطرائق متنوعة، وكان من أهم تلك الأساليب والطرائق أسلوب ضرب الأمثال والذي من شأنه أن يقرب المعاني إلى الأذهان ويزيدها روعة وجمالا، ولا شك أن ضرب الأمثال أوقع في النفس وأبلغ في الوعظ وأقوى في الزجر وأقوم في الإقناع، لذلك حرص صلى الله عليه وسلم على ضرب المثل في الأحداث والمواقف المتعددة مع مراعاة التنويع في موضوع المثل والغرض الذي سيق لأجله، فضربَ الأمثال في مواضيع متعددة ولأغراض شتى من أمور العقيدة والعبادة والأخلاق والزهد والعلم والدعوة وفضائل الأعمال والترغيب والترهيب وغير ذلك ونوع ﷺ في أسلوب العرض وطريقة ضرب الأمثال.

تعريف الإمام النووي [1]: هو الإمام العلامة محي الدين أبو زكريا يحي بن شرف بن مُري بن حسن بن حسين بن حزام بن محمد بن جمعة النووي الدمشقي، ولد رحمه الله في العشر الأوّل من محرم سنة 631هـ في قرية نوى من قرى حوران في سورية من أبوين صالحين، فلما بلغ العاشرة من عمره قدم به أبوه إلى دمشق، فبدأ في حفظ القرآن الكريم وقراءة الفقه على بعض أهل العلم، وتفنن في أصناف العلوم وأتقنها وسكن المدرسة الرواحية وتولى التدريس بدار الحديث (

665ه). تميزت حياة النووي بالجدية في طلب العلم وأخذه من كل مأخذ حتى نال إعجاب شيوخه كما كان غزير الإنتاج وافر التأليف بدأه عام (660ه) وقد بلغ الثلاثين من عمره ، وبورك له في حياته، فأذاب جهد فكره وثقافته في كتب ومؤلفات فيها سهولة العبارة ووضوح الدلالة وقوة الدليل والإنصاف في عرض آراء الفقهاء، ومازالت مؤلفاته تحظى بمزيد من الاهتمام والعناية والتدريس في كثير من بلاد الشام ومن تصنيفاته: (روضة الطالبين) و(شرح صحيح مسلم) وكتاب الأسماء واللغات والأذكار المسمى بـ (حلية الأبرار) ورسالة في العقيدة أسماها (المقاصد والتبيان في آداب حملة القرآن) وغير ذلك من الكتب[2].

كتاب (رياض الصالحين) هو كتاب مختصر، جمع فيه الإمام النووي طائفة كبيرة من الأحاديث النبوية من كتب الصحاح، وصدّر موضوعاتها بآيات من الذكر الحكيم بما تناسب كل موضوع، وهو من الكتب الجامعة للترغيب والترهيب والتزم فيه ذكر الأحاديث الصحاح الواضحات من أمهات كتب الحديث.

تعريف المثل :

نجد لفظة مثل في المعاجم العربية ترد بمعان كثيرة يرتبط أكثرها بالمشابهة والمماثلة، وفي لسان العرب "أن لفظة (مِثْل) بمعنى تسوية. يُقال هذا مِثْله ومَثَله كما يقال شِبْهه وشَبَهُه بمعنى"[3]. ويرى عبد المجيد عابدين "أن الساميين أطلقوا لفظ (المثل) على فنون من التعبير بعضها موجز وبعضها مطوّل. أطلقوه على

الكلمة الموجزة التي اكتسبت صفة الشيوع والشهرة في الناس، والكلمة الجامعة المركزة الدالة على مهارة الصنعة والقدرة على الإلغاز والتعمية" [4].

تكتسب الأمثال قيمة بالغة ضمن فنون الكلام، لذيوع مادتها وانتشارها بين الناس، وامتزاجها الشديد بلغتهم، وارتباطها بمختلف جوانب حياتهم، إذ تعد مرآة لحضارة الشعوب وأخلاقها، وخلاصة لتجارب الأمم وخبرتها بالحياة، وإذا كان الدرس اللغوي يهدف إلى رصد ظواهر اللغة في ألفاظها وتراكيبها، ووصفها وتحليلها؛ للوقوف على طبيعتها وخصائصها؛ فإن الأمثال تزداد أهمية في مجال الدرس اللغوي لأمرين:

-كون الأمثال تعتمد على الفطرة الأولى، تلك اللغة تتغلغل في أعماق النفس، وأغوارها[5]، وتعبّر عن أغراض الناس دون تكلّف، فهي ما ترضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه حتى تداولوه فيما بينهم، وهو أبلغ من الحكمة؛ لأن الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة[6].

-ولأن الأمثال أصدق دلالة على لغة الشعب لكونها تنبع من مختلف طبقاته، على محض السليقة، بخلاف لغة الشعر التي تنبع من طبقة الشعراء؛ فإنها قد لا تمثل طبيعة اللغة الكلامية.

فإذا كانت أمثال سائر الناس بهذه الأهمية في مجال الدرس اللغوي، فلاشك أن أمثال النبي ﷺ أكثر أهمية، لأنها أرفع منزلة، وأعلى شأنا وأوجز لفظا، وأدق

فكرا، وأبلغ حكمة، وأكرم معنى وأسمى غاية، فبذلك تجمع الأمثال النبوية أهميتين في مجال الدرس اللغوي المثلية والحديثية.

فوائد الأمثال السائرة : كلف الله سبحانه وتعالى النبي ﷺ القيام بمهمة التبيين والبلاغ، فاستعان ﷺ بأساليب مختلفة للإيضاح وطرق عديدة للتعليم، وفي الذروة من تلك الأساليب يأتي أسلوب ضرب الأمثال لما لها من فوائد:

أنها تقرب المراد للعقل لأنها تصور المعقول بصورة المحسوس، فتجعل المعاني كالأشخاص، وهذا يثبتها في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس، قال الزمخشري: : "التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعاني، وإدناء المتوهم من المشاهد "[7]. ويقول الأصفهاني:" لضرب العرب الأمثال شأن ليس بالخفق في إبراز خفيات الدقائق، ورفع الأستار عن الحقائق، تريك المتخيل في صورة المتحقق، والمتوهم في معرض المتَيَقَّن، والغائب كأنه مشاهد"[8].

والغاية المرجوة من ضرب الأمثال لأمور كثيرة نذكر منها: التذكير والوعظ والحث، والزجر والاعتبار، وتفخيم الأمر أو تحقيره، وفي هذا الصدد قال عبد القاهر الجرجاني: اعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو أُبرزت هي باختصار في معرضه، ونُقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أُبهة، وأكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبَّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا ،وقسّر الطّباع على أن تُعطيها محبة وشغفا، فإن كان مدحا ... فإن كان ذما: كان مسه أوجع وميسمه ألذع، ووقعه أشد، وحدّه أحد.

وإن كان حجاجا: كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر وبيانه أبهر. وإن كان افتخارا:كان شأوه أمدّ، وشرفه أجدّ، ولسانه ألدّ. وإن كان اعتذارا كان إلى القبول أقرب وللقلوب أخلب وللسخائم (الحقد) أسل ... وإن كان وعظا: كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر،وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر أن يجلي الغياية ويبصر الغاية، ويبري العليل ويشفي الغليل ."[9]

وكان الاهتمام بالأمثال عند العرب منذ القديم ؛ حيث قالوا: وبالمثال يتضح المقال؛ باعتبار الأمثال وشيَ الكلام وجوهرَ اللفظ وحليَ المعاني، وقد قال ابن المقفع (ت 134هـ): إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضحَ للمنطق وآثقَ للسمع وأوسع لشعوب الحديث. وقال إبراهيم النظام (ت 231 هـ): يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة. كما قال ابن القيم الجوزية (ت 751هـ): ففي الأمثال تأنس النفس سرعة قبولها وانقيادها لما ضُرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحد ولا ينكره، وكلما ظهرت الأمثال ازداد المعنى ظهورا ووضوحا، فالأمثال شواهد المعنى المراد، وهي خاصة العقل ولبّه وثمرته"[10]، وإن المثل أبقى من الشعر وأشرفُ من الخطابة كما ذكر علي القاسمي ذلك في معجمه عبارة ابن عبد ربه " المثل ما ترضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه حتى ابتذلوه فيما بينهم، وفاهوا به في السراء والضراء[11]

ولم يكن الغرض من الأمثال في النصوص النبويّة لغاية فنية كما هو الشأن لدى الأدباء في تزيين الكلام وتحسينه، وإنما جاء لغاية أسمى، ومقصد أشرف؛

يتمثل في إبراز المعاني في صورة مجسمة لتوضيح الغامض، وتقريب البعيد، وإظهار المعقول في صورة المحسوس، كما أن ضرب الأمثال أسلوب من أساليب التربية، يحث النفوس على فعل الخير، ويحضها على البر، ويدفعها إلى الفضيلة، ويمنعها عن المعصية والإثم، وهو في الوقت نفسه يربي العقل على التفكير الصحيح والقياس المنطقي السليم، لأجل ذلك ضرب النبي صلى الله عليه وسلم طائفة من الأمثال في قضايا مختلفة وفي مواطن متعددة ولما كان الهدف من ضرب الأمثال هو إدراك المعاني الذهنية المجردة، وتقريبها من العقل، وتكوين صورة لهذا المعنى في المخيلة، ليكون التأثر بتلك الصورة أشد وأقوى من الأفكار المجردة، كثر الاعتماد على هذا الأسلوب في القرآن الكريم، قال سبحانه :" **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذا القُرآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يتَذَكَّرُونَ**"[12].

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يمر بآيات الأمثال المضروبة للناس، ويجد أثرها في الرد والتحدي، والترغيب والترهيب، وكان يعرف دور المثل ومكانته عند قومه، فلا غرابة إذاً أن يحظى المثل باهتمامه ﷺ مادام وسيلة من الوسائل التي تعينه على أداء هذه المهمة. وإن المثل قد يكون قصة رمزية تدل على مغزى أخلاقي، وقد يكون رديفَ الحكمة؛ بعدّه عبارة موجزة يتداولها الناس؛ وتحمل فكرة حكيمة وتصاغ بأسلوب مجازي، وبكلمات لها أثر في النفس يسهل حفظها ونطلق عليها المثل السائر وهو حكمة أو إشارة وربّ إشارة أبلغ من عبارة " كثيرة الذيوع من قديم تتضمن ملاحظة عامة، غالبا ما تكون

أسلوب مجازي، ذلك كالمثل العربي العامي (البيضة ما تكسرش الحجر) والمثل الفصيح (المورد العذب كثير الزحام)[13].

وقد وردت كلمة (المَثَلُ) في القرآن الكريم، وتفيد معنى التوضيح والترميز والتأكيد، ومن ذلك قوله تعالى:" **إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ** "[14].وقوله كذلك في صيغة الجمع "**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**[15]".

لقد وجدت الأمثال منذ القديم؛ باعتبارها وسيلة من وسائل التلميح أو التصريح، وتعكس الواقع بواجهة غير مُعلنة بل بوسيلة الترميز أحيانا، وبالمباشرة في بعض الأحايين، وكلها تحمل مضمون تجربة أو حكمة أو عظّة أو تنبيه، وقد سُجِّلت بحكمة وحسن تدبير وتعكس حياة اجتماعية وأخلاقية ودينية، وبلغة سهلة ؛فيها الكثير من الأساليب البلاغية؛ ومرامها التأثير في المتلقي من خلال حَدَثٍ كان ذات مرة، وترك أثرا لا يُمحى، وهي حِكَمٌ هدفها تعليمي أو وعظيّ أو إرشاد، وقد تجتمع كلها في مثل واحد[16].

بلاغة الرسول ﷺ:

تدل الأحاديث أوّليا في مجملها عن الأمثال في خبر المصطفى ﷺ على أنه كان يحمل الشفقة والرحمة على أمته ويريد أن يقربَ لها ما بعُد وييسر لها ما صعُب

وأن يبلغ رسالة ربه على الوجه الأكمل والنحو الأتم صلوات الله وسلامه عليه فأختط الطرائق التي تعرفها العرب في كلامها ومن تلكم الطرائق ضرب الأمثال، وقد ضرب الله الأمثال في كتابه العظيم وضربها نبيه ﷺ وهي في جملتها دالة على علو كعبه في الفصاحة وذروة ما وصل إليه من البلاغة عليه الصلاة والسلام ولا غرو فهو من قريش واسترضع ﷺ في بني سعد، أمثاله بعضها وأكثرها مستمد من البيئة يخاطب النفس البشرية يقرب لها الأمر حتى تقوم الحجة وتتضح المحجة.

وإذا كان العرب قد عُرفوا بالسليقة اللغوية التي تأبى اللحن، وبالفصاحة والبلاغة وأتقنوا كلامهم وحذقوا في شعرهم فلأن هذا كان عن نظر متقدم وتكلف منهم، ومع هذا فهم لم يسلموا من عيوب الزلل في أقوالهم، فأطنبوا في مكان الإيجاز وأوجزوا في موضع الإطناب وغيرها مما عدت من عيوب الفصاحة والبلاغة. إلا أن الرسول ﷺ كان أفصح العرب مع أنه لم يتكلف القول و م يقصد تنميقه، فالناظر إلى كلامه لا يجد سوى معان هي من إلهام النبوة ورزانة العقل والحكمة وبراعة القصد.[17]

وقد أورد الجاحظ (ت 255ه) وصفا بليغا للبلاغة النبوية في وصف أسلوب الحبيب المصطفى خير من نطق بالضاد فيقول : " ... وأنا ذاكرا بعد هذا فنا آخر من كلامه وهو الكلام الذي قل حروفه ... فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحابَ التقعيب، وهجر الغريب الوحشيّ، ورغب عن الهجين السوقيّ، فلم

ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق"[18].

إن كلام رسول الله ﷺ: هو الكلام الذي ألقى الله عليه الحجة وغشّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام ومع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمةٌ، ولا بارت له حُجّة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبُذ الخُطبَ الطوال بالكلام القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصمُ، ولا يحتجّ إلا بالصدق، ولا يطلب الفلَج (الفوز) إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمِز، ولا يبطئ ولا يَعجَلُ، ولا يُسهب ولا يحصَر، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا، ولا أقصد لفظا ولا أعدل وزنا، و ا أجمل مذهبا ،ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى من كلامه ﷺ[19].

يقول علامة الأدب وناقد الشعر إمام نحاة البصرة يونس بن حبيب:"ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله ﷺ "[20]. وقال الزمخشري (ت538ه) في أسلوب الرسول ﷺ:"ثم إن هذا البيان العربي كأن الله عزَّتْ قدرته مَخَضه وألقى زُبْدته على لسان محمد عليه أفضل صلاة وأوفر سلام، فما من خطيب يقاومه إلا نكَص متفكك الرجل وما من مصقِع يُناهزه إلا رجع فارغ السَّجْل وما قُرِن بمنطقه منطقٌ إلا كان كالبِرذَون مع الحصان المُطَهَّم ولا وقع من كلامه شيءٌ في كلام الناس إلا أشبه الوَضح في نُقْبة الأدْهم، قال عليه

السلام أُوتِيت جوامعَ الكلم، قال أنا أفصحُ العرب بَيْد أني من قريش واستُرضعت في بنى سَعْدِ بن بكر"[21].

قال القاضي عياض (ت544ه) في فصاحة الرسول ﷺ:"وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، وفصاحة لفظ، وجزالة قول، وصحة معانٍ، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخصَّ ببدائع الحكم[22].

ويقول ابن القيم (ت 751ه) وهو يتحدث عن هديه ﷺ في حفظ المنطق، واختيار الألفاظ " كان يتخير فى خطابه، ويختار لأمته أحسن الألفاظ وأجملها وألطفها،وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء والغلظة والفحش، فلم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، ولا صخاباً ولا فظاً، وكان يكره أن يستعمل اللفظ الشريف المصون في حق من ليس كذلك، وأن يستعمل اللفظ المهين المكروه فى حق من ليس من أهله"[23]

ووصف الرافعي رحمه الله كلام النبي ﷺ من الناحية البيانية بأنه" :حسن المعرِض، بيّن الجملة، واضح التفصيل، ظاهر الحدود، جيد الرصف، متمكن المعنى، واسع الحيلة في تصريفه، بديع الإشارة، غريب اللمحة، ناصع البيان، ثم لا ترى فيه إحالة ولا استكراهاً، ولا ترى اضطراباً، ولا خطلاً ، ولا استعانة من عجز، ولا توسعاً من ضيق، ولا ضعفاً في وجه من الوجوه"[24].

قال عباس محمود العقاد : "عرف عن النبي صلى الله عليه وسلم في حياته الخاصة والعامة أنه كان قليل الكلام، معرضاً عن اللغو، لا يقول إلا الحق، وإن قاله في مزاح فمن ثم لا عجب أن يخلو كلامه من الحشو والتكرار والزيادة، فإذا كرر اللفظ بعينه كما جاء في بعض المعاهدات، فذلك أسلوب المعاهدات الذي لا محيص عنه، لأن تكرار النص يمنع التأويل عند اختلافه "[25]. لأن الرسول صلى الله عليه و سلم كان أخلصهم منطقا، وأعذبهم بيانا وأصوبهم رأيا، وأبلغهم معنى، وأبعدهم نظرا؛ وهذا لا يتأتى إلا بعناية من الله وفضله، فتطلع على أن كلامه مع قلة ألفاظه واتساع معناه وإحكام أسلوبه في غير تعقيد وتكلف قد خرج عن قريحة واعية، ووحي صادق، وإلهام صائب، فصار أروع الأمثال التي لم يتفق لأحد مثلها في حسن بلاغتها، وروعة فصاحتها وقوة دلالتها، ثم أصبح ميراثا خالدا في الأدب الإسلامي.

الجديد في موضوع المثل النبوي :

لا خلاف في أن مواضيع المثل النبوي تختلف عن مواضيع المثل الجاهلي، ففي المثل النبوي نرى التركيز على الدعوة إلى الالتزام بطاعة الله وعبادته، وعلى التخلق بالقيم الإسلامية ...وما شابه ذلك وهذا كله بألفاظ واضحة من دون استخدام لفاحش الكلام، بينما نرى المثل الجاهلي يميل إلى استخدام الألفاظ الهابطة وفحش الكلام. والأمثال الجاهلية على هذا النوع كثيرة، لكني أشير إلى بعض أرقامها في الحاشية.[26]

نماذج تطبيقية :

لو تأملنا بعض الأحاديث النبوية ثم توسعنا في بيانها وشرحها لظهر لنا كثير مما يتجلى لأن القضايا إذا ذكرت نظريا ما استفاد الناس ما يمكن أن يستفيدوه من التطبيق العملي .

- عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ، عَن النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:" **مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت الكلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**"[27].

- كلمة (مثل) بمعنى الشبه ويقال مثل ومثله وشبه وشبهه والأول هو السائد قال تعالى:" **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ**"[28] ، ليس هنا مشبه ومشبه به إنما مثل الجنة هنا صفة.

يبدأ التركيب اللغوي لهذا المثل بذكر الممثَّل له (الهدى والعلم الشريف) ثم يذكر الحديث الممثَّل به (الغيث والأرض)، ثم يقسّم هذا الممثل به إلى أقسام:

طيبة وأجادب وقيعان . ثم يُفصِّل التمثيل ببيان معانيه فانقسم المثل إلى طرفي معادلة تمثيلية،وتفسير لمعانيها.

فلكل من الهدى والعلم والغيث سمات دلالية خاصة حيث:

- يجتمعون في السمو والعلو والرفعة كل منهم ينزل نزولاً مادياً ومعنويا.

- فيهم الحياة: للهدى والعلم حياة الأرواح وللغيث حياة الأبدان.

- خلوّهم من الباطل فالكتاب " **ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**"[29] ،والماء طهور لقوله تعالى:" **وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا**"[30].

ثم يقسّم الممثل به (الغيث والأرض) إلى أقسام: طيبة وأجادب وقيعان إلى أقسام المتلقين:

- الأرض الملقي والغيث ما ينزل من السماء.

- أرض طيبة تمسك الماء وتنبت العشب فهي أنتفعت أولا ثم نفعت غيرها والمقصود بهم العلماء العاملين.

- لم يحصل كلأ ولا عشب لكن هنا فيه ماء فالناس أنتفعوا لكن لم تنتفع الأرض والمقصود بهم العلماء غير العاملين.

- أرض قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت عشب فلا أنتفعت ولا نفعت.

وذكر الشيخ مصطفى محمد عمارة – رحمه الله- في كتابه " جواهر البخاري وشرح القسطلاني" من فوائد هذا الحديث ما ساقه في قوله:"يضرب لك النبي صلى الله عليه وسلم مثلَ من قبل الهدى وعلِمَ وعلَّم وأفاد واستفاد فنفعه الله ونفع به،و كان مصدر الخير ومنبع البركات وسيرته زكية ووجوده رحمة ونعمة. والثاني لم يقبل الهدى فكان كالصخر لم ينفع ولم ينتفع به "[31]. ثم أضاف:"قيل إنّما اختار ﷺ الغيث ليؤذن باضطرار الخلق إليه، قال تعالى:" **وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ**"[32].

وقد كان الناس قبل المبعث قد امتحنوا بموت القلب ونضوب العلم حتى أصابهم الله برحمة من عنده، وإنما ضرب المثل بالغيث للمشابهة التي بينه وبين العلم فإن الغيث يحيي البلد الميت والعلم يحيي القلب الميت.

قال النووي: " معنى هذا التمثيل أن الأرض ثلاثة أنواع فكذلك الناس. فالنوع الأول من الأرض ينتفع بالمطر فيحيا بعد أن كان ميتا وينبت الكلأ فينتفع به الناس والدواب. والنوع الأول من الناس يبلغه الهدى والعلم فيحفظه ويحيا قلبه ويعمل به ويعلمه غيره فينتفع وينفع . والنوع الثاني من الأرض ما لا تقبل الانتفاع في نفسها لكن فيها فائدة وهي إمساك الماء لغيرها فينتفع به الناس والدواب. وكذلك النوع الثاني من الناس لهم قلوب حافظة لكن ليست لهم أذهان ثاقبة ولا رسوخ في العلم يستنبطون به الأحكام والمعاني وليس عندهم اجتهاد في العمل به، فهم يحفظونه حتى يجيء أهل العلم للنفع والانتفاع

فتأخذه منهم فتنتفع به – فهؤلاء نفعوا بما بلغهم. والثالث من الأرض هي السباخ"[33].

وهنا الحديث غير حصري فقد يأتي أناس غير هذه الأصناف:

- الطائفة الأولى هم الذين يمكن أن يقال عنهم حقاً أنهم أولياء الله.

- الطائفة الثالثة في قلوبهم كبر.

فلفظة الهدى تعني من ذلك بلطف وإرشاد والمقصود به الكتاب والشرع. وأن أعظم ما يرمز إليه الحديث الدعوة الحقة هي ما كانت على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

وعن النعمان بن بشير ﷺ عن النبي-ﷺ- قال:" **مَثَلُ القَائِم في حُدُودِ اللَّه والْوَاقِع فيها، كَمثل قَومٍ اسْتَهَموا على سَفِينَةٍ، فَأَصابَ بَعْضُهم أعْلاهَا، وبعضُهم أَسْفلَهَا، فكان الذي في أَسفلها إذا استَقَوْا من الماء مَرُّوا على مَنْ فَوقَهمْ، فقالوا: لو أنا خَرَقْنا في نَصِيبِنَا خَرقا ولَمْ نُؤذِ مَنْ فَوقَنا؟ فإن تَرَكُوهُمْ وما أَرَادوا هَلَكوا وهلكوا جَميعا، وإنْ أخذُوا على أيديهِمْ نَجَوْا ونَجَوْا جَميعا**"[34].

تضمن هذا الحديث الشريف مثلا بأسلوب قصصي: سفينة من طابقين، اقترع ركابها عليها، فركب بعضهم في الطابق العلوي، و ركب البعض الآخر في الطابق السفلي. فأراد الذين في الأسفل أن يعدلوا عن استقاء الماء من أعلى السفينة إلى أسفلها بأن يخرقوا خرقا تقريبا للمسافة، وتوفيرا للجهد، وتجنبا للمشقة. وهم

يتصورون أنهم إن فعلوا في نصيبهم – الذي هو الطابق السفلي – لم يؤذوا الذين في الطابق العلوي. لكن الحقيقة غير ما تصوروه. ذلك أن السفينة وحدة متكاملة إذا أصاب الضَّررُ جزءا منها تضررت الأجزاء الأخرى بالتبع وهذا ما بينه النبي ﷺ في مغزى قصة هذا المثل حيث قال: " فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا. وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا".

وهذا تمثيل لحقيقة آثار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو تعطيلهما. فلفظة قوم تطلق على الرجال وهذا غالب استعمال القرآن. أما لفظة القائم بمعنى المحافظ "وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ""[35] ، أي حافظوا.و هو تمثيل يمتاز بالبساطة والتصوير الجميل والقصة الوجيزة مع بيان المغزى أو العبرة، كل ذلك بأوجز لفظٍ، وأحلى أسلوب، وأعمق معنى وأصدقه. فلن تصلح الخلق إلا بهدي خالقهم.

- وعن النعمان بن بشير أيضا قال: قال رسول الله ﷺ:" **مَثَلُ المؤمنين في تَوَادِّهم وتراحُمهم وتعاطُفهم: مثلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضو: تَدَاعَى له سائرُ الجسد بالسَّهَرِ والحُمّى**"[36].

أعظم ما دل عليه الحديث أن دين الأنبياء واحد، فالأمة الإسلامية واحدة، متماسكة الأعضاء، متكاملة البنيان - البناء هو الإسلام - ، متضافرة القوى، متضامنة الجهود، كأنها البنيان المرصوص أو الجسد الواحد الذي إذا أصيب عضو من أعضائه شمل المصابُ الجسد كله، فتداعى بالسهر والحمى.

أعظم ما دل عليه الحديث أن دين الأنبياء واحد، فالأمة الإسلامية واحدة، متماسكة الأعضاء، متكاملة البنيان - البناء هو الإسلام - ، متضافرة القوى، متضامنة الجهود، كأنها البنيان المرصوص أو الجسد الواحد الذي إذا أصيب عضو من أعضائه شمل المصابُ الجسد كله، فتداعى بالسهر والحمى.

هذه هي الصورة التمثيلية التي قرّب النبي من خلالها حقيقة الوحدة الإسلامية الإيمانية للأذهان، وهي صورة يدركها كل إنسان إدراكا جيدا، لأنها تعبر عن شيء مُجَرَّب، وهو الشعور العام بالضعف والمرض بسبب خلل في عضو من الأعضاء.

وقوام الوحدة الإسلامية المودة بين المؤمنين، والتراحم والتعاطف، وكل عضو في الأمة إنما هو جزء لا يتجزأ من كيانها، إذا أصابه ضرر أو ضيم، وجد مواساة وتعاطفا من الأعضاء الأخرى للأمة أو المجتمع الإسلامي، فتوحيد الله هو الجامع لأديان الأنبياء كلهم.

- قال أبو موسى الأشعري ﷺ، قال رسول الله ﷺ:" **إِنَّمَا مَثَلُ الجليس الصالحِ والجليس السوءِ كحامِلِ المسك، ونافخِ الكِيْرِ فحاملُ المسك: إما أن يُحْذِيَكَ، وإما أن تبتاع منه، وإِمَّا أن تجِدَ منه ريحا طيِّبة، ونافخُ الكير: إما أن يَحرقَ ثِيَابَكَ، وإما أن تجد منه ريحا خبيثَة** "[37].

تضمّن هذا الحديث النهي عن مجالسة من يتأذى في مجالسته في الدين والدنيا، كما ذكر صاحب جواهر البخاري. وذلك من خلال مثلٍ مفصلٍ مُبينٍ: الجليس الصالح كحامل المسك والجليس السوء كنافخ الكير؛ فهذان تشبيهان

دقيقان. ووجه الشبه في التشبيه الأول هو الطيب، وفي التشبيه الثاني هو الخبث. وهذا التمثيل قائم على أركان التشبيه المعروفة ويتجلى التفصيل فيه من خلال بيان منافع وفوائد مجالسة الصالحين وهي عديدة. والحاصل أن مجالستهم لا تخلو من فائدة ومنفعة، مثل مجالسة حامل المسك الذي إن لم يمنحك شيئا اشتريت منه، وإن لم تشتر شيئا من المسك الذي معه، شممت الرائحة الطيبة.

كما يتجلى التفصيل التمثيلي من خلال بيان مضار مجالسة جلساء السوء، فمثلما أن مجالسة الصالحين لا تخلو من نفع، فإن مجالسة الطالحين لا تخلو من ضرر ومفسدة. فهي كمجالسة الحداد الذي ينفخ الكبر فيتطاير شرر النار، فإما أن يحرق ثيابك، وإما أن تتأذى بالرائحة الخبيثة.

- وعن جابر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " **مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات**"[38].

ذكر صاحب " جواهر البخاري " في شرح هذا الحديث كلاما مختصرا فقال: " يضرب النبي مثلا واضحا بجري الماء الذي ينزل فيه المغتسل في اليوم خمس مرات ليُزيل أوساخ جسمه وما علق به فكذلك المحافظة على أداء الأوقات الخمسة يزيل الله بها ذنوب اليوم كله"[39].

وفي الحديث إشارة إلى سنّية الصلاة في المسجد، وقد مثل لها النبي صلى الله عليه وسلم بنهر جار كثير الماء، على باب دار المسلم. وكلمة (الغمر) تدل على

الخير العظيم الذي في الصلاة. وإذا كان الأفضل أن يصلي المسلم في المساجد البعيدة لتكثير الخطوات وبالتالي لمضاعفة الحسنات، فإن بوسعه أن يصلى في أقرب مسجد إلى داره أيضا إلا إذا تعذر عليه الخروج لسبب شرعي.

ويوضح معنى التطهير الذي يستفيده المصلي مع الجماعة الصلوات الخمس أحاديث أخرى نذكر منها الحديث الذي رواه مسلم من حديث أبي هريرة : قال صلى الله عليه و سلم " **الصَّلواتُ الخَمْسُ، والجُمُعةُ إِلى الجُمُعَةِ، كفَّارةٌ لما بَيْنهُنَّ، ما لم تُغش الكَبائِرُ**"[40].

فمن رحمة الله بنا أن جعل لنا هذه الصلوات الخمس طهارة لأرواحنا، وزكاة لأنفسنا، وراحة لقلوبنا، فهي بمثابة النهر الذي يجري على أبواب المنازل نغتسل منه خمس مرات في اليوم، فنتنظف ونتخلص من الأوساخ.فالحمد لله على ذلك.

ولاشك أن المسلم الذي يحافظ على الصلوات الخمس، ويؤديها بشروطها وآدابها لا يمكن ألا أن يكون طاهرا على الدوام، بدليل هذا الحديث، وغيره من الأحاديث التي تفيد أن طهارة الإنسان المسلم تتجدد بفضل المحافظة على الفرائض.

يتجلى أسلوب التمثيل في هذا الحديث من خلال التصوير الجميل المنتقى والمناسب والأنيق في آن واحد، مما يبعث في النفس البهجة، ويأخذ بمجامع

القلوب إلى التزام أداء الصلوات في أوقاتها. وكل ذلك بعبارة في أعلى مراتب البلاغة والإيجاز إليها.

وعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:"**مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي**"[41].

الجنادب نحو الجراد والفراش هذا هو المعروف الذي يقع في النار.

والحجز جمع حجزة وهى معقد الإزار والسراويل

قال الله تعالى: " **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ، فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** "[42].

هاتان الآيتان الكريمتان تضمنتا من المدح والثناء وذكر محاسن وفضائل وشمائل الرسول الأكرم ما لا يخفى، بأوجز لفظ وبأعمق عبارة، وأوقعها تأثيرا في النفس. ومما قاله القاضي عياض – رحمه الله – في تفسيرهما:" ثم وصفه بعد بأوصاف حميدة، وأثنى عليه بمحامد كثيرة: من حرصه على هدايتهم ورشدهم وإسلامهم وشدة ما يعنتهم ويضر بهم في دنياهم وأخراهم وعزته عليه ورأفته ورحمته بمؤمنيهم، قال بعضهم أعطاه اسمين من أسمائه رؤوف رحيم"[43].

ينطبق هذا التفسير على شرح هذا الحديث الذي رواه سيدنا جابر ﷺ، وقد اشتمل على تمثيل بليغ لهذا الحرص النبوي الكريم، والرأفة العامة والرحمة المحمدية الشاملة التي أرسلها الله للعالمين.

والتمثيل صورة بيانية جميلة: رجل يدب الفراش والجراد عن النار كي لا يقع فيها فيحترق.

ولاشك أن جاذبية وجمالية هذه الصورة تُغني عن الشرح والتفصيل. وهي تؤكد توخي الخطاب النبوي الشريف للأساليب البيانية التي يعقلها المخاطب على النحو الأفضل، ويقتنع بموجب دلالاتها وإشاراتها العميقة، ومن هذه الأساليب أسلوب التمثيل الذي رأينا مدى رسوخه في الثقافة العربية القديمة. لكن التمثيل النبوي أوجز لفظا وأجزل معنى، وأغنى دلالة، وأبين صورة، وأجمل تعبيرا، بل إنه قمة الجمال التصويري البشري، فالنار الدنيوية التي ترمز إلى النار الأخروية، والجراد والفراش إذ يقع فيها وهو يرمز إلى وقوع الناس في المحرمات والمكروهات، وذبّ الرجل الذي أوقد النار هذا الجراد والفراش عنها – هذه الصورة بكل عناصرها الفنية، تنبيه على مدى حرص النبي ﷺ على إنقاذ الناس من الهلاك، ولا شك أن في ذلك ما يملأ القلب ثقة بهذا النبي الرؤوف الرحيم على أمته، وما يبعث في النفس الحرص على الاستمساك بحبله المتين، وعروته الوثقى ﷺ.

ضَرب رسول الله ﷺ الأمثال، ليبرز لنا معاني الحديث، ويصورها لتسهل على المتلقي، وتكون أوقع في القلب، وأقرب مراداً للعقل،في أجمل صورة جليةً

واضحة، ولتكون زيادة في التوضيح والتقرير والوصف، وكما قال أهل اللغه فإن أبلغ الوصف ما قلب السمع بصراً، وأجوده الذي يستطيع أن يحكي الموصوف حتى يكاد يمثله عياناً للسامع!، وهذا ما كان مشتملاً إلا ! في حديث سيدنا محمد ﷺ، فالمتأمل في حديثه، يجده مشتملاً على الفصاحة والبلاغه والبيان، مع جودة التصوير، وقوة الألفاظ والتراكيب، ولا عجب فهو القائل: أعطيت جوامع الكلم، والرسول ﷺ ضَرب لنا الأمثال لتقريب المعاني، وإبراز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس، حتى تقبله عقولهم، وتستقر صورته في أذهانهم، وضَربُ الأمثال هو أقرب الطرق في الترغيب والترهيب لما يراه الناس من الممثّل به مما تكرهه نفوسهم، وكما قيل فالأمثال أوقع في النفس، وأبلغ في الوعظ، وأقوى في الزجر، وأقوم في الإقناع.

وقال أبو القاسم الزمخشرى: "التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعاني وإدناء المتوهم من المشاهد؛ فإن كان المتمثل له عظيما كان المتمثل به مثله وإن كان حقيرا كان المتمثل به كذلك، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إلا بأمر استدعته حال الممثل له. ألا ترى أن الحق لما كان واضحا جليا تمثل له بالضياء والنور، وأن الباطل لما كان بضده تمثل له بالظلمة، وكذلك جعل بيت العنكبوت مثلا في الوهن والضعف، ليكون خطوة موفقة في نشر الحديث وإبراز ما فيه من جوانب إيمانية، وبلاغية، مع ما فيه من عِبر ومواعظ، وحِكم وفوائد، ليرسّخ معانيه ودروسه في الأذهان، ويكون أقرب مِمّا كان عليه في صورة محسوسة ملموسة يتلقاها المتلقي بفِهم وإدراك"[44].

وها هنا بعض أمثال الحديث العظيمة، البليغة،نذكرها للعِظة والعبرة،والتفكّر والتبصّر بما فيها من حِكم وفوائد جمة.

قال أبو موسى الأشعري ﷺ، قال رسول الله ﷺ:" إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ ، إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ ، فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا ، وَكَذَّبَهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ وَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي ، وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ"[45].

يُرْوَى عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَال: نَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ لَو اِتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً،فقال:" مَالِي وَلِلدُّنْيَا مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا"[46].

وقالَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ : "**للَّهُ أفرحُ بتَوبةِ أحدِكُم، مِن رجُلٍ خرجَ بأرضٍ دوِّيَّةٍ مَهْلَكَةٍ، معَهُ راحلتُهُ علَيها طعامُهُ، وشَرابُهُ وزادُهُ وما يُصلحُهُ، فأضلَّها، فخرجَ في طلَبِها، حتَّى إذا أدرَكَهُ الموتُ فلَم يجِدْها، قالَ: أرجعُ إلى مَكاني الَّذي أضلَلتُها فيهِ، فأموتُ فيهِ، قالَ: فأتى مَكانَهُ، فغلَبتهُ عينُهُ، فاستيقَظَ، فإذا راحلتُهُ عندَ رأسِهِ، علَيها طعامُهُ وشرابُهُ، وزادُهُ، وما يُصلحُهُ**"[47].

قَالَ إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذهبت"[48]

لقد تزينت كتب الأمثال والأدب بروائع الكلمات التي قالها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وجرت مجرى الأمثال ومن نماذجها قوله – ﷺ:" **تَجِدُ النَّاسَ مَعَادِنَ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإسلامِ"**[49]..والأمثال النبوية المذكورة هنا وهناك هي حكم وعظات أخلاقية وعقائدية وتربوية، وقد أطلقوا عليها مصطلح الأمثال، لتداولها في أحاديث الناس، فصارت شواهد كلامهم وعنوان أحاديثهم.

وتتصف الأمثال المنتقاة بالاختصار نتيجة لحذف تاريخ نشأة المثل وقصته والظروف العامة لولادة النص المسمى مثلا. وقد لوحظ في أدب الأمثال النبوية ظاهرة إيجاد المثل الواقعي المباشر الذي استنبطه النبي ﷺ من المشاهد التي يعيشها الناس، والصحابة من ضمنهم، في حياتهم اليومية، كما يظهر من رواية الإمام الصادق عليه السلام أنه نزل رسول الله صلى الله عليه واله وسلم بأرض قرعاء فقال لأصحابه: "إئتوا بحطب" فقالوا يا رسول الله نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب، قال ﷺ: فليأت كل إنسان بما قدر عليه، فجاءوا به حتى رموا بين يديه، بعضه على بعض، فقال رسول الله: ثم قال: "إياكم والمحقرات من الذنوب فإن لكل شيء طالبا، ألا وإن طالبها يكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين". مشيرا لقوله تعالى:" **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا**

قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ"[50]. وقد انفرد صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الأسلوب من الأمثال.

خاتمة:

أُعطِيَ الرسول ﷺ جوامع الكلم ، وهي ملكة وموهبة يقتدر بها على إيجاز الألفاظ مع سعة المعاني وبنظم لطيف لا تعقيد فيه . كالأمثال التي استعملها قصد تطويعه لأغراض الدعوة وتوظيفه لخدمتها المختلفة والغايات المتنوعة التي تصب في هدف واحد هو تعليم الأمة ونصحها وإرشادها وإقالة عثرتها وجعلها خير أمة أخرجت للناس.

أما النتيجة التي نستخلصها مما تقدم فيمكن أن نثبتها ضمن النقطتين التاليتين:

الأولى: أن الكلام المحمدي جاء من القوة والبلاغة وشدة التأثير بحيث فرض نفسه على كلام الناس بشكل أمثال يستشهدون بها في محاوراتهم. فجرى بينهم مجرى الأمثال وهو من أسمى أنماطها.

الثانية: إن البيان المحمدي جاء بأنواع من الأمثال لم يعرفها تأريخ البيان والأدب الإنساني من قبل، وتمتاز هذه الأمثال بقوة رمزيتها في التعريف بالحقائق المعرفية التي تتضمنها.

الهوامش:

[1] ينظر: الحافظ بن عبد الرحمن السخاوي: حياة الإمام النووي، تع: مصطفى البغا، دار الهدى، دط، دت، الجزائر، ص 99 .

[2]- أبو زكريا محي الدين بن شرف النووي، رياض الصالحين، خرج أحاديثه، أبو عبد الرحمن عادل بن سعد، دار الرشيد للكتاب، باب الواد، ص 7 .

[3]- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، سوريا، 1999، مادة مثل .وجاء فيه أيضا (و المَثَلُ الشيء الذي يُضرَب لشيء مثلاً فيجعل مِثْلَه).

[4]- عبد المجيد عابدي: الأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى، دار مصر للطباعة، القاهرة، ط1 ،ص 8 .

[5] - محمد جابر العلواني: الأمثال في الحديث النبوي الشريف، مكتبة المؤيّد، الأردن، الطبعة الأولى، 1993 ،ص 36.

[6] - الفارابي: ديوان الأدب، تحقيق أحمد مختار عمر، مجمع اللغة العربية، القاهرة ، ج 1 ، ص 74 . وينظر: السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1998، ج 1 ،ص 486 .

[7]- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبي الفضل إبراهيم، دار التراث، 2008، ص 488 .

[8]- السيوطي : الإتقان في علوم القرآن، دار مكتبة الهلال، بيروت، دت، ج 2 ، ص 132.

[9]-الجرجاني: أسرار البلاغة، تعليق محمد شاكر، دار المدني، جدّة، 1991 ، ص 128 – 130.

[10]- ابن القيم الجوزية: أعلام الموقعين عن ربّ العالمين، تحقيق: محمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 ، 1994، ج1 ، ص291 .

[11]- علي القاسمي: معجم الاستشهادات، مكتبة لبنان، ناشرون، ط 1 ، 2001 ، مادة (م ث ل)

[12]سورة الزمر، الآية: 27.

[13]- مجدي وهبة وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط 1 ، 1984، ص 332 .

[14]سورة البقرة، الآية: 26 .

[15]سورة العنكبوت، الآية: 43

[16]صالح بلعيد: المازيغيات، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، دت ، ص 11 .

[17]مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن و البلاغة النبوية ، دار الأصالة ، الجزائر ، دط ، 2005 ،ص 206.

[18]عمرو بن بحر الجاحظ : البيان و التبيين ، تح : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ط 7 ،1998 ، ج 2 ، ص 17.

[19]الجاحظ: البيان والتبيين، ج 2 ، ص 10 – 11 .

[20]- نور الدين عتر: أهم الملامح الفنية في الحديث النبوي، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة،الدوحة، المجلد 7،العدد 7، ص97.

[21]محمود بن عمر الزمخشري: الفائق في غريب الحديث، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان،ط 2 ج1 ، ص 11

[22]نور الدين عتر: أهم الملامح الفنية في الحديث النبوي، ص97.

[23]محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله: زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، ط 14 ، 1986 ،ج2 ،ص 320.

[24]مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، 325

[25] عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، المكتبة العصرية، القاهرة ، ط1، 2000م .ص 82.

[26]الميداني أبو الفضل أحمد: مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط 2، 1959.ج 1 ، ص 55 ،رقم 24/ ج 1 ، ص 95 ، رقم 461 / ج 1 ، ص107 ، رقم 542 / ج 1 ، ص162 ، رقم 847 /ج 1 ، ص 387، رقم 2049 / ج 1 ،ص 387 ، رقم 2050 / ج 2 ، ص 207 ، رقم 3462 / ج 2 ،ص 264 ، رقم 3764 / ج 2 ، ص 300 ، رقم 4015 .

[27] النووي: رياض الصالحين من كلام سيّد المرسلين، تعليق الشيخ الألباني والشيخ العثيمين، دار الإمام مالك، إعداد: محمود بن الجميل، البليدة، الجزائر، الطبعة الأولى، 2002، ص343. رقم الحديث 1386. متفق عليه.

[28] سورة محمد :الآية 15.

[29] سورة البقرة ، الآية: 2.

[30] سورة الفرقان ، الآية: 48.

[31] مصطفى محمد عمارة: جواهر البخاري وشرح القسطلاني، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الثالثة، ص38.

[32] سورة الشورى، الآية: 28.

[33] - مصطفى محمد عمارة: جواهر البخاري وسرح القسطلاني، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ص 59.

[34] النووي: رياض الصالحين، ص85. رقم الحديث 192. رواه البخاري .

[35] سورة البقرة، الآية: 43.

[36] النووي: رياض الصالحين، ص96. رقم الحديث 229. متفق عليه .

[37] النووي: رياض الصالحين، ص132. رقم الحديث 367. متفق عليه.

[38] النووي: رياض الصالحين، ص286. رقم الحديث 1050. رواه مسلم

[39] - مصطفى محمد عمارة: جواهر البخاري وشرح القسطلاني، ص 106 .

[40] النووي: رياض الصالحين، ص286. رقم الحديث 1052. رواه مسلم

[41] النووي: رياض الصالحين، ص76. رقم الحديث 167. رواه مسلم

[42] - سورة التوبة ، الآيتان: 128، 129.

[43] - القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص : 14 – 15 .

[44] الزمخشري: الكشاف، دار المعرفة، بيروت، دت ، ج3 ، ص207.

[45] النووي: رياض الصالحين، ص.

[46] النووي: رياض الصالحين، ص162. رقم الحديث 1052. رواه الترمذي و قال حديث حسن صحيح.

[47] النووي: رياض الصالحين ، ص24. رقم الحديث 16. رواه مسلم

[48] النووي: رياض الصالحين، ص278. رقم الحديث 1010. متفق عليه.

[49] النووي: رياض الصالحين، ص133. رقم الحديث 375. رواه مسلم

[50] - سورة يس، الآية: 12.